البعد التدبري في تفسير ابن كثير

أ. د. محمد بن عبد الله الربيعة

الأستاذ بجامعة أم القرى – قسم الكتاب والسنة

خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.مقدمـــــة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد.

فإن المفسرين مع كثرتهم وتعدد مناهجهم يتفاوتون في عنايتهم بالبعد التدبري الذي يتعلق بما وراء المعنى من الدلالات والأثر الإيماني والعملي، وحين نسبر التفاسير ذات العناية بالبعد التدبري نجد أن تفسير ابن كثير يعد من أبرزها، لما يتميز به من العناية بالاستشهاد بالقرآن والسنة وآثار السلف وبهدايات الآيات.

وقد كتب الله تعالى لهذا التفسير من القبول والأثر المبارك لما تميز به من تيسير للعبارة وعناية بالتفسير بالمأثور مع بيان لجوانب الهداية في الآيات.

وقد وفق الأخوة في اللجنة العلمية في مؤتمر تدبر باختيار ابن كثير ضمن المفسرين الذين عنوا بالتدبر، وطلبوا مني الكتابة عن البعد التدبري في تفسيره، وقد كانت لي صحبة مع هذا التفسير عدة سنوات في مجلس تدارس مع بعض الإخوة، كما كانت لي دراسة لمنهجه في التدبر في معاهد تدبر في الرياض ومكة، فتكشف لي فيه وجوه وجوانب متعلقة بالتدبر، أرجو أن يوفقني الله تعالى لإبرازها في هذا البحث.

وقد قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التفسير بالمأثور وعلاقته بالتدبر عند ابن كثير

المبحث الثاني: البعد التدبري في تفسير ابن كثير .

المبحث الثالث: كيف تقرأ تفسير ابن كثير قراءة تدبرية.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا البحث وأن يحقق فيه المأمول.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول

الاستشهاد بالنصوص والآثار في الجوانب التدبرية

المطلب الأول: التفسير بالمأثور وعلاقته بالتدبر عند ابن كثير

يعتبر ابن كثير من أبرز المفسرين عناية بالتفسير بالمأثور بأنواعه، بل هو الأشهر في العناية بتفسير القرآن بالقرآن والسنة، وهذا الذي أعطاه ميزة بين التفاسير.

وقد أخذ ابن كثير بقاعدة شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في أحسن طرق التفسير الذي ذكرها في المقدمة بقوله: "إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وما اخْتُصِر من مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له... وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين؛ مثل عبد اللهّ بن مسعود..."[1].

ولذلك سلك ابن كثير مسلكاً بديعاً في الترتيب، فبعد أن يذكر الآية وغرضها ومناسبتها، يذكر الآيات الشاهدة عليها إن وجدت ثم يذكر الأحاديث الواردة في موضوعها، ثم يذكر أقوال السلف في معناها، وربما يجمع أو يرجح بينها، ويعقب على الآيات أحياناً بما يناسب.

وهذا المسلك الذي سلكه ابن كثير لا نجده ظاهراً عند غيره من التفاسير بهذا الترتيب، وهذا ما يميز ابن كثير عن غيره.

(١) مقدمة في أصول التفسير ص٩٢، تفسير ابن كثير (١/ ٧).

والذي يزيد من تميزه في هذه الجانب هو أنه لا يكتفي في إيراد الآيات والأحاديث والآثار في جانب المعنى فقط بل إنه يستشهد بها في جوانب متعددة، ومنها:

- أن تكون الآية أو الحديث أو الأثر شاهداً على غرض الآية وموضوعها.
- أن تكون مؤكدة لدلالاتها وهداياتها.
- أن تكون متضمنة صورة أو مثالاً للآية.
- أن تكون تطبيقاً من النبي ﷺ أو الصحابة والتابعين لها.

وهذه الجوانب متعلقة بالتدبر أكثر من تعلقها بالتفسير من جهة أن التدبر يتعلق بالمقاصد والموضوعات والدلالات والهدايات والصور والأمثلة والتطبيقات أكثر من تعلقه بالمعنى التفسيري، إذ أن هذه الجوانب تأتي وراء المعنى.

المطلب الثاني: استشهاده بالنصوص والآثار على غرض الآية وموضوعها.

كثيراً ما يستشهد ابن كثير بالنصوص والآثار في بيانه للآية تأكيداً لغرضها وموضوعها، وهذا جانب متعلق بالتدبر كما ذكرت من جهة أنه خارج حدود المعنى إلى آفاق الآية ومضمونها.

ومن أمثلة ذلك:

١- **الاستشهاد من القرآن:**

- **قوله تعالى:** ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥] **قال رحمه الله** في بيانه لهذه الآية: "يخبر تعالى إخبارًا عامًا يعم جميع

الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾[الرحمن:٢٦]،... وقوله: ﴿ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴾تصغيرًا لشأن الدنيا، وتحقيرًا لأمرها، دنيئة فانية قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[الْأَعْلَى: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرَّعْدِ: ٢٦]،وقال تعالى: **{مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ}**، [النَّحْلِ: ٩٦]،وقال تعالى:﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الْقَصَصِ: ٦٠]"[1].

- **قوله تعالى:** ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾**قال ابن كثير:** "هذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة: ١٢٨]"[2].

٢- **الاستشهاد من السنة.**

- **قال تعالى:** ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٤] **قال ابن كثير:** " والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٧-١٧٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٨).

«**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١). وفي رواية: «**وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»(٢).

- **قَوْلُهُ تعالى:** ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[آل عمران: ١٤٣] **قال ابن كثير:** " أي: قد كنتم -أيها المؤمنون- قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتتحرقون عليهم، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: "**لا تمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»(٣)"(٤).

٣- الاستشهاد بالآثار

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (١/ ٦٩)(٤٩-٥٠)،سنن أبي داود، تفريع أبواب الجمعة، باب الخطبة يوم العيد (١/ ٢٩٧)(١١٤٠)،سنن الترمذي، أبواب الفتن، باب ما جاء في تغيير المنكر باليد.. (٤/ ٤٧٠)(٢١٧٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٩١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو (٤/ ٦٣)(٣٠٢٤)، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو (٣/ ١٣٦٢)(١٧٤٢)، سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب كراهة تمني لقاء العدو (٣/ ٤٢)(٢٦٣١).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٧).

- **قوله تعالى:** ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[آل عمران: ١٥٩]،قال ابن كثير: " قال الحسن البصري: هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به."[١]

المطلب الثالث: الاستشهاد بالنصوص والآثار على دلالة الآية وهداياتها

يستشهد ابن كثير على الآية بالنصوص والآثار في تأكيد دلالة الآية وهدايتها. ومن أمثلة ذلك:

١- **الاستشهاد بالقرآن:**

- **قَوْلُهُ تعالى:** ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾[المائدة: ٣]**قال ابن كثير:** " أي: غير متعاط لمعصية الله، فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الْآيَةَ:١٧٣]"[٢].
- **قَوْلُهُ تعالى:** ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾[المائدة: ٦] **قال ابن كثير:** " أي: مع المرافق، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾[النِّسَاءِ:٢]"[٣].

٢- **الاستشهاد بالسنة:**

- **قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾[المائدة: ٤] **قال ابن كثير:** " أي: وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد... وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني

(١) المصدر السابق (٢/ ١٤٨).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣١).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٤٩).

أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله. فقال: «**إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك...**»[1]"[2].

- **قوله تعالى:**﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾[آل عمران: ١٧] **قال ابن كثير: "** دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار....وثبت في الصحيحين وغيرهما من المساند والسنن، من غير وجه، عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟**»[3] الحديث. "[4].

٣- الاستشهاد بالآثار:

- **قوله تعالى:**﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[مريم: ٣٢] **قال ابن كثير: "**قال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقًا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًا، ثم قرأ: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾، قال: ولا تجد سيئ الملكة إلا وجدته مختالًا فخورا،

(١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان، (١/ ٤٦)(١٧٥) وكتاب الصيد والذبائح، باب ما أصاب المعراض بعرضه (٧/ ٨٦)(٤٥٧٧)، صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب الصيد بالكلاب المعلمة، (٣/ ١٥٢٩)(١٩٢٩)، سنن أبي داود، كتاب الصيد، باب في الصيد (٣/ ١٠٨)(٢٨٤٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل (٨/ ٧١)(٦٣٢١)، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل (١/ ٥٢١)(٧٥٨)، سنن أبي داود، أبواب قيام الليل، باب أي الليل أفضل (٢/ ٣٤)(١٣١٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣).

ثم قرأ: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النِّسَاءِ: ٣٦]"[1]

المطلب الرابع: الاستشهاد بالنصوص والآثار في ذكر الصور وأمثلة على الآية.

يستشهد ابن كثير على الآية بصور وأمثلة على ماتضمنته الآية.

ومن أمثلة ذلك:

١- **الاستشهاد بالقرآن:**

- **قَوْلُهُ تعالى:** ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ﴾**الْآيَةَ**[يونس: ٢]، **قال ابن كثير: "**يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾[التَّغَابُنُ: ٦]، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾[الْأَعْرَافِ: ٦٣: ٦٩]، وقال تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]"[2].

- **قَوْلُهُ تعالى:** ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأنفال: ٣٢]**قال ابن كثير في بيانها:** "...وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[الشعراء: ١٨٧]،وقال هؤلاء: ﴿ ٱللَّهُمَّ

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٣٠).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٤٥).

إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1].

٢- **الاستشهاد بالسنة:**

- **قوله تعالى:** ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾[آل عمران: ٧]"قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد، عن أبي غالب قال: سمعت أبا أمامة يحدث، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾قال: «**هم الخوارج**»، وفي قوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾. [**آل عمران: ١٠٦**]، قال: «**هم الخوارج**»[2]"[3].

- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[آل عمران: ٧٧] **قال ابن كثير:** "قد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر ما تيسر منها: **الحديث الأول**: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان،

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٦).

(٢) مسند الإمام أحمد، تتمة مسند الأنصار، مسند أبي أمامة الباهلي (٣٦/ ٥٩٤)(٢٢٢٥٩)، والترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران (٥/ ٧٦)(٣٠٠٠) وقال: حديث حسن، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٧١)(٨٠٤٦) وغيرهم، قال في مجمع الزوائد (٦/ ٢٣٣): رواه الطبراني ورجاله ثقات. اهـ، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٠٢/ ١٠٥٥٩)(٣٥٥٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٩).

حدثنا شعبة قال: علي بن مدرك أخبرني قال: سمعت أبا زرعة، عن خرشة بن الحر، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**» قلت: يا رسول الله، من هم؟ خابوا وخسروا. قال: وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال: «**المسبل، والمنفق سلعته بالحلف الْكاذِبِ، والمنانُ**»(١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَأَهْلُ السُّنَنِ، مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، بِهِ"(٢).

المطلب الخامس: الاستشهاد بالأحاديث والآثار في تطبيق الآية والعمل بها.

يستشهد ابن كثير على الآية بذكر أحاديث أو آثار في تطبيقها. ومن الأمثلة:

١- الاستشهاد بالسنة في تطبيق الآيات :

- **قوله تعالى:**﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[الأعلى: ١] أورد ابن كثير حديثاً في تأول النبي ﷺ للآية فقال : " قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق،

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار... (١/ ١٠٢)(١٧)، سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب ما جاء في إسبال الإزار (٤/ ٥٧)(٤٠٨٧)، مسند الإمام أحمد، مسند الأنصار، حديث أبي ذر الغفاري (٣٥/ ٢٤٥)(٢١٣١٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٢-٦٣).

عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «**سبحان ربي الأعلى**»[1]. [2]

- **قوله تعالى:** ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [**النصر**: ١]، أورد ابن كثير حديثاً في عمل النبي ﷺ بالسورة فقال: "وقال الطبراني: حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا أبو كامل الجحدري، حدثنا أبو عوانة، عن هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ حتى ختم السورة، قال: نعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت، قال: فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً في أمر **قوله تعالى:** ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ **قال ابن كثير:** " ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطييبا لقلوبهم، ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم كما، شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير... وشاورهم - أيضا - أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم إلى أمام القوم، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فترك ذلك. وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجئ لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما

(١) سنن أبي داود، تفريع أبواب الركوع والسجود، باب الدعاء في الصلاة (١/ ٢٣٣)(٨٨٣)، مسند الإمام أحمد، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس (٣/ ٤٩٥)(٢٠٦٦)، المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ١٦)(١٢٣٣٥)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح و (١/ ٢٧١)(٨٥٩)، وصحيح أبي داود (٤/ ٣٨)(٨٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٧٨).

قال. وقال عليه السلام في قصة الإفك: " **أشيروا علي معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي ورموهم، وايم الله ما علمت على أهلي من سوء، وأبنوهم بمن - والله - ما علمت عليه إلا خيرا** "[1]. واستشار عليا وأسامة في فراق عائشة، رضي الله عنها "[2].

٢- إيراد الآثار الواردة عن السلف في تطبيق الآية وتنزيلها على الواقع:

- **قَوْلُهُ تعالى:** ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾[آل عمران: ٢٨] **قال ابن كثير:** "أي: إلا من خاف في بعض البلدان أوالأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: **"إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم"**[3].
- في سورة الأعلى **قال ابن كثير:** " قَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنِ السُّدِّيِّ، قال الثوري، عن السدي، عن عبد خير قال: سمعت علياً قرأ:﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[الأعلى: ١] فقال: سبحان ربي الأعلى".
- **قوله تعالى:**﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾[الأنبياء: ٥٢]قال ابن كثير: "قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة، قال: مر علي، على قوم

(١) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب إذا عدل رجل أحدا فقال لا نعلم الا خيرا... (٣/ ١٦٧)(٢٦٣٧)، صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الأفك وقبول توبة القاذف (٤/ ٢١٢٩)(٢٧٧٠)، سنن الترمذي أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة النور (٥/ ٣٣٢)(٣١٨٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠).

يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ لأن يمس أحدكم جمرا حتى يطفأ خير له من أن يمسها)[1].

المبحث الثاني

البعد التدبري عند ابن كثير

ابن كثير ممن تميز بتعليقه على الآيات بما يوحي معايشته لها، كما أنه تميز باستنباطه لبعض الدلالات والهدايات، وربط الآية بالواقع. وهذا البعد متعلق بالتدبر أكثر من تعلقه بالتفسير والمعنى.

ولعلي في هذا المبحث أن أجلي ذلك بما يلي:

المطلب الأول: في بيان غرض الآيات ومقصودها.

يستفتح ابن كثير تفسيره للآيات كثيراً ببيان مقصود الآية وغرضها قبل بيان معناها وإيراد أقوال السلف والمفسرين فيها، وهذا جانب من أبرز جوانب التدبر كما قال الشاطبي: "التدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد"[2]، ومن هذا الباب نستطيع القول بأن ابن كثير من أبرز المفسرين عناية بهذا الجانب أعني - بيان أغراض الآية ومقصودها -. ولعلي أجلي ذلك بالأمثلة:

(١) المصدر السابق (٥/ ٣٤٨).

(٢) الموافقات (٤/ ٢٠٩).

١- **قوله تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢١-٢٢]**قال ابن كثير:** "شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبيده"(١).

فتجد أن ابن كثير ذكر غرض الآية ومقصودها، وهو جانب تدبري له ارتباط بالمناسبات.

٢- **قوله تعالى:** ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٣-٢٤]**قال ابن كثير في فاتحة كلامه عن الآية:** " شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو.."(٢).

فذكر هنا غرض الآيات وهو أنها في تقرير النبوة. وهذا وإن كان متعلقاً بالمناسبات إلا أنه بيان للغرض من الآية.

٣- **قوله تعالى:** ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٤).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٨).

غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[البقرة: ٣١-٣٣]**قال ابن كثير** في فاتحة كلامه عن الآيات: " هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من علم أسماء كل شيء دونهم "[1].

٤- **قوله تعالى:**﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الأنفال: ٤٦] **قال ابن كثير في فاتحة كلامه عن الآيات: "**هذا تعليم الله عباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء"[2].

المطلب الثاني: في بيان دلالاتها وهداياتها.

مما تميز به ابن كثير استنباطه لدلالات الآية وهداياتها بأنواعها: ومنها الدلالات العقدية والفقهية والتربوية والاجتماعية وغيرها:

ومن أمثلة ذلك:

١- **قوله تعالى:**﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٢] **قال ابن كثير:** "هذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع فقال: وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية

(١) المصدر السابق (١/ ٢٢٢).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٧٠).

واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه"[1].

٢- **قوله تعالى:** ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[آل عمران: ٦] **قال ابن كثير** في تعليقه على هذه الآية مستنبطاً دلالة دقيقة لطيفة: "وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله تعالى صوره في الرحم وخلقه، كما يشاء، فكيف يكون إلها كما زعمته النصارى -عليهم لعائن الله-..."[2].

٣- **قوله تعالى:** ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾[آل عمران: ٢٠] **قال ابن كثير:** "...وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة[3].

٤- **قوله تعالى:** ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[آل عمران: ٢٦-٢٧]**قال ابن كثير:** "... وفي هذه الآية تنبيه

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٧).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٦).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٦).

وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق"[1].

٥- **قال تعالى:** ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾[آل عمران: ٣٢] **قال ابن كثير:** "أي: خالفوا عن أمره ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر"[2].

٦- **قوله تعالى: {**﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾[آل عمران: ٣٦]**قال ابن كثير:** " فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق "[3].

٧- **قوله تعالى:** ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾[آل عمران: ٣٧] **قال ابن كثير:** **"وفيه دلالة على كرامات الأولياء "**[4].

٨- **قَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا مريم:** ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[مريم: ٢٣]**قال ابن كثير:** " فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة "[5].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٢).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٣٣).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٣٦).

(٥) المصدر السابق (٥/ ٢٢٣).

٩- **قوله تعالى:** ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾[آل عمران: ١٤٥]قال ابن كثير: "وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه "[(١)].

١٠- **قوله تعالى:** ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾[آل عمران: ١٣٤] **قال ابن كثير:** "{﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ثم قال تعالى:﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾أي: مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾فهذا من مقامات الإحسان"[(٢)].

المطلب الثالث: في بيان الدروس والعبر من القصص.

ابن كثير برز في تفسيره للقصص بذكر الروايات فيها وهو إمام في السيرة وله كتاب البداية والنهاية، إلا أننا نجده أحياناً يعلق على الآية بذكر مواضع الاقتداء أو الاعتبار فيها، ومن ذلك مثلاً:

١- قوله تعالى عن يوسف:﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[يوسف: ٥٥]**قال ابن كثير:** " مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره، للحاجة"[(٣)].

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٩).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٢٢).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٣٩٥).

٢- **قال تعالى:**﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾[يوسف: ٧٢]**قال ابن كثير: "** وهذا من باب الجعالة، ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾وهذا من باب الضمان والكفالة"[(١)].

٣- **قوله تَعَالَى:** ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾[يوسف: ٧٦] **قال ابن كثير: "**وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة"[(٢)].

٤- **قوله تعالى:**﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[آل عمران: ١٨٧] **قال ابن كثير: "**وفي هذا تَحْذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويُسْلكَ بهم مَسْلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئا، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «**من سُئِل عن عِلْم فكَتَمه أُلْجِم يوم القيامة بِلجَامٍ من نار**»[(٣)]"[(٤)].

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٤٠١).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠١).

(٣) سنن الترمذي، أبواب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم (٥/ ٢٩)(٢٦٤٩)، سنن أبي داود، كتاب العلم، باب كراهية منع العلم (٣/ ٣٢١)(٣٦٥٨)، مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين، مسند أبي هريرة (١٣/ ١٧)(٧٥٧١) وغيرهم، قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٥٤): حسنه الحاكم وصححه البيهقي عن أبي هريرة مرفوعا، وهو عند الحاكم أيضا وغيره وصححه عن ابن عمر.اهـ، وكذا صححه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ١٦٠)(١٢٠).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨١).

المطلب الرابع: ذكر صور وأمثلة على الآية.

من الجوانب المهمة التي يعنى بها ابن كثير – رحمه الله –بيان الصور والأمثلة على الآية. ومن أمثلة ذلك :

١- قوله تعالى:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[فُصِّلَت: ٣٣]،**قال ابن كثير**: " وهذه عامة في كل من دعا إلى خير، وهو في نفسه مهتد"(١).

٢- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾[الشورى: ٣٩]،**قال ابن كثير**: " أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غورث بن الحارث، الذي أراد الفتك به عليه السلام حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ، عليه السلام، وهو في يده صلتا، فانتهره فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا

(١) المصدر السابق (٧/ ١٧٩).

أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم، الذي سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية – وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمود بن مسلمة – التي سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: أردت إن كنت نبيا لم يضرك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جدا، والحمد لله"[1].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠]،**قال ابن كثير**: "أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه"[2].

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢١١).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٤١٩).

٤- قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[سورة غافر(٥١)]، **قال رحمه الله:** "وهكذا نصر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارا وأعوانا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل الناس في دين الله أفواجا. ثم قبضه الله، تعالى، إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والرّساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[(١)].

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٥١).

٥- **قوله تعالى:** ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[الفتح: ٢٣]، قال ابن كثير: "هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق و وضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين أنصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعددهم، وكثرة المشركين وعددهم"(١).

المطلب الخامس: تطبيق الآيات وتنزيلها على الواقع.

مما تميز به ابن كثير أنه يورد عند بيانه للآيات تطبيقات عليها من واقع السلف أو غيرهم أو من واقعه، وهذا جانب تدبري ينبغي على القارئ المتدبر للتفسير أن ينتبه له.

ومن الأمثلة الواردة في تفسيره في هذا الجانب:

١- قوله تعالى: ﴿ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾[الزُّمَر: ٢٣]،**قال ابن كثير:** "...كما كان الصحابة، رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله"(٢).

٢- قوله تعالى: " ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾[الزُّخرُف: ٨٩]،**قال ابن كثير:** " هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه

(١) المصدر السابق (٧/ ٣٤١).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٥٥).

وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب"[1].

٣- قوله تعالى:﴿ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ ﴾[الأحقاف: ١١]،**قال ابن كثير**: "وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة ; لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه ؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها"[2].

٤- قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾[الفتح: ٢٩]، قال ابن كثير: "...وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل"[3].

المبحث الثالث

كيف تقرأ تفسير ابن كثير قراءة تدبرية

من أفضل ما يوصى به المتدبرون من كتب التفسير تفسير ابن كثير، وذلك لما تضمنه من الجوانب التدبرية وأعني بها ما وارء المعنى مما سبق عرضه.

ولعلي في هذا المبحث أن أبين للقارئ الكريم منهجاً لقراءة تفسير ابن كثير قراءة تدبرية:

(١) المصدر السابق (٧/ ٢٤٤).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) المصدر السابق (٧/ ٣٦٣).

المطلب الأول: معرفة الجوانب التدبرية التي تضمنها التفسير.

من المهم للقارئ المتدبر أن يكون له منهج في قراءته لكتب التفسير قراءة تدبرية، وذلك من خلال التركيز على تلك الجوانب التدبرية، ومعرفة طريقة المؤلف في عرضها

وقد سبق بيان تلك الجوانب وأمثلة عليها، أذكرها هنا إجمالاً:

أولاً: بيان غرض الآية ومناسبتها.

ثانياً: إيراده للشواهد من القرآن والسنة وآثار السلف في جوانب غير متعلقة بالمعنى مباشرة بل هي تابعة له، وهي أقرب في تعلقها بالتدبر.

ثالثاً: بيان ما تضمنته الآية من دلالات وهدايات مستنبطة.

رابعاً: إيراد صور وأمثلة وتطبيقات على الآية وتنزيلها على الواقع.

خامساً: ذكر الدروس والعبر في القصص القرآني.

فهذه أبرز الجوانب التدبرية التي تضمنها التفسير، فلو أن القارئ المتدبر ركز عليها في قراءته للتفسير لاستفاد كثيراً وازداد ملكة ودربة على معرفة وبيان ما تضمنته الآية من جوانب تدبرية.

المطلب الثاني: طرق القراءة التدبرية في تفسير ابن كثير.

لا شك أن طريقة القراءة والمنهج الذي يتبعه القارئ له أثر في النتيجة والأثر الذي يحصل عليه، فلعلي هنا أذكر بعض الطرق المثلى لقراءة تفسير ابن كثير قراءة تدبرية لعها أن تعين القارئ الكريم في قراءته واستفادته المثلى من هذا التفسير المبارك:

الطريقة الأولى: القراءة الجماعية وتدارس جوانب التدبر.

١- يجتمع مجموعة من طلبة العلم، أو طالب علم مع طلاب الحلقة أو المسجد أو الجامعة.

٢- يتفقون على مجلس تدارس أسبوعي.

٣- يقرؤون كل أسبوع مقداراً معيناً من التفسير (ما بين ثمن - وجهان ونصف – إلى جزء)، ويكلف كل واحد منهم في استخلاص الجوانب التدبرية.

٤- يتم التدارس في المجلس في بيان ما ذكره ابن كثير من جوانب تدبرية، بحيث يأخذون مقطعاً من الآيات بحسب تقسيم ابن كثير ويتدارسونه.

٥- في ختام المجلس يتدارسون في أثر الآيات على أنفسهم، ويخرجون بتوصيات عملية يطبقونها.

ويمكن استثمار هذه الطريقة في قروبات الواتساب ووسائل التواصل الاجتماعي، وهي طريقة ناجحة بإذن الله.

الطريقة الثانية: القراءة الفردية مع الحزب اليومي.

من المهم أن يخصص الحافظ لكتاب الله تعالى أو المسلم عموماً وطالباً العلم خصوصاً وقتاً لحزبه من القرآن يومياً، بحيث يختم في الشهر مرة أو في الشهرين مرة مع اصطحابه لتفسير من التفاسير يرجع فيما يتعلق بالمعنى وما وراءه من جوانب تدبرية. ومن أفضل التفاسير التي يحسن اصطحابها تفسير ابن كثير وتفسير السعدي. وهنا سأذكر منهجاً مقترحاً للقارئ للجمع بين قراءة القرآن وقراءة التفسير.

١- أن يقرأ كل يوم نصف جزء إلى جزء.

٢- يطالع بعد قراءته تفسير ابن كثير للفهم العام للآيات مع تركيزه على الجوانب التدبرية التي ذكرتها.

٣- يجتهد في الخروج بفوائد وهدايات يزكي بها نفسه.

الطريقة الثالثة: التدرب الجماعي أو الفردي على طريقة ابن كثير في ذكر الجوانب التدبرية.

هذه الطريقة هدفها تكوين الملكة التدبرية في الجوانب التي يذكرها ابن كثير، وهي تتلخص فيما يلي:

١- تلاوة الآية أو الآيات.

٢- استحضار غرضها والشواهد عليها من القرآن والسنة.

٣- استخلاص دلالات الآية وهداياتها.

٤- استحضار صور وتطبيقات عليها.

٥- الرجوع إلى تفسير ابن كثير للنظر فيما ذكره من الجوانب السابقة فينظر القارئ أو الهل فيما ذكره ابن كثير زيادة على ما استحضره، وبذلك ينمي القارئ ملكة التدبر عنده.

خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.الخاتمة

الحمد لله وبعد...

فقد كان هذا البحث المختصر عن تفسير ابن كثير ومنهجه في التدبر، ولعلي أذكر أهم ما خلصت إليه:

١- أن ابن كثير يعتبر من أبرز التفاسير التي عنيت بالبعد التدبري.

٢- أن ابن كثير في عنايته بالتفسير بالمأثور لم يكتفي بما يتعلق بالمعنى، بل إنه يورد الآيات والأحاديث والأثار في جوانب متعلقة بما وراء المعنى من المقاصد والموضوعات والدلالات والصور والتطبيقات.

٣- أن ابن كثير قد عنى في التدبر بمجالات مختلفة وهي:

أ- بيان أغراض الآيات ومناسباتها.

ب- بسط الكلام فيما يتعلق بموضوع الآية.

ت- بيان دلالات الآية وهداياتها.

ث- بيان الصور والتطبيقات وتنزيل الآية على الواقع.

التوصيات

١- أدركت من خلال هذا البحث منزلة ابن كثير وتميزه في الجوانب التدبرية، مما يدعو إلى أهمية العناية به في هذا الجانب.

٢- أدركت أهمية ارتباط المتدبر بكتب التفسير لمعرفة جوانب التدبر فيها.

٣- أوصي بطرح برامج تدبرية تنطلق من هذا التفسير بقراءة جماعية لاستخلاص الجوانب التدبرية وتكوين الملكة التدبرية من خلالها.

هذا وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

- الآخرة[1].[2]"

(١) المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٢٨) (١١٩٠٣)، ورواه النسائي في الكبرى في كتاب التفسير، سورة النصر (١٠/ ٣٤٩) (١١٦٤٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٤٤): وفي إسناده هلال بن خباب، قال يحيى: ثقة مأمون لم يتغير، ووثقه ابن حبّان، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح. اهـ، وقال الألباني في حاشية المشكاة (٣/ ١٦٨٤): وإسناده حسن.اهـ

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٥١٠).